الفصل الثالث

العبادة

أنهى الشيخ ملاحظاته على كلام الأمير حول مصطلح « الرب والربوبية » ، يبدوا أن الأمير قد ضاق صدرا بكلامه ، حيث فند كل شبهاته ، وكشف كل أخطائه حول هذا المفهوم الذى تحمس له ، واضح على قسمات الأمير أنه يعد العدة ليشد على الشيخ في جولة جديدة ، أرى في عينيه بريق التحدى وشرر العناد والإصرار ، رفع الأمير إلى السماء وجهه ، سرح بعينيه في الأفق ،داعب أرنبة أنفه ، التفت إلى الشيخ مشيرا بيده ، قد علا شفتيه جملة بليغة « أنا لن أسلم رايتى » ، ولئن قلت أيها الشيخ ماقلت ، ولئن اعترضت ما اعترضت ، فإنى عازم على إكمال المساجلة ، مصر على الوصول إلى نتيجة ، ماض وأعرف مادربى وماهدفى ، مهما أتيت أيها الشيخ من قول مختلق ومختلف ، ولتكن جولتى الآن معك حول مصطلح « العبادة » ، ولقد قال القرآن مخاطبا الكافة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ، وقال مخاطبا المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، إنها العبادة وظيفة الخلق ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾.

أما عن التحقيق اللغوي لكلمة العبادة : -

فيقول الأمير : العبودة والعبودية؛ معناها اللغوى الخضوع والتذلل، أي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقيادًا لا مقاومة معه، ولا عدول عنه، ولا عصيان له، حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيف ما يشاء ، وعلى ذلك تقول العرب بعير معبد : للبعير السلس المنقاد، و طريق معبد : للطريق الممهد

للوط ء . ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والإطاعة والتأله والخدمة والقيد والمنع . **جاء في لسان العرب تحت مادة (ع ب د) ما نلخصه فيما يلي :**

١) **العبد** : المملوك خلاف الحر ، تعبد الرجل : اتخذه عبدًا، أي مملوكًا أو عامله معاملة العبد، وكذلك عبد الرجل واعبده واعتبده (وقد جاء في الحديث الشريف : ثلاثة أنا خصمهم ، رجل اعتبد محررًا – وفي رواية أعبد محررًا – أي اتخذ رجلا حرًا عبدًا له ومملوكًا : وفي القرآن الكريم أن موسى عليه السلام قال لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، اتخذتهم عبيدًا لك ، دائنين، وكل من دان لملك فهو عابد له؛ وقال ابن الأنباري فلان عابد (هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره) .

٢) عبده عبادة ومعبدًا ومعبد ة (تأله له).

٣) التعبد : (التنسك). هو المعبد المكرم المعظم :كأنه يعبد . قال الشاعر :

أرى المال عند الباخلين معبدًا

٤) وعبد به : (لزمه فلم يفارقه)

٥) ما عبدك عني : (أي ما حبسك).

ويتضح من هذا الشرح اللغوي لمادة (ع ب د) : أن مفهومها الأساسي أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله ، ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان ، وينقاد له انقيا دًا، وهذه هي حقيقة العبدية والعبودية، ومن ذلك أن أول ما يتمثل في ذهن العربي لمجرد سماعه كلمة (العبد) و(العبادة) هو تصور العبدية والعبودية . وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتمًا يتبعه تصور الإطاعة . ثم إذا كان العبد لم يقف به

الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ، ويعترف بعلو شأنه وكان قلبه مفعمًا بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه ويتفنن في إبداء الشكر على الآئه وفي أداء شعائر العبدية له، وكل ذلك اسمه التأله والتنسك . وهذا التصور لا ينضم إلى معاني العبدية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب، بل يخضع معه قلبه أيضاً . وأما المفهومان الباقيان – الملازمة والحبس – فإنهما تصوران فرعيان لا أصليان للعبدية.

- **استعمال كلمة العبادة في القرآن : -**

قال الأمير : وإذا رجعنا إلى القرآن بعد هذا التحقيق اللغوي رأينا أن كلمة العبادة قد وردت فيه غالبًا في المعاني الثلاثة الأولى ، ففي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان الأول والثاني معًا، وفي الأخرى المعنى الثاني وحده، وفي الثالثة المعنى الثالث فحسب، كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد .أما أمثلة ورودها بالمعنيين الأول والثاني في القرآن فهي :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٧] ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٢] ، والمراد بالعبادة في كلتا الآيتين هو العبودية والإطاعة، فقال فرعون : أن قوم موسى وهارون عابدون لنا، أي عبيد لنا، وخاضعون لأمرنا، وقال موسى :إنك عبدت بني إسرائيل، اتخذتهم عبيدًا، وتستخدمهم حسب ما تشاء وترضى.

أما العبادة بمعنى العبودية والإطاعة ففى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢] ، إن المناسبة التي أنزلت بها هذه الآية هي أن العرب قبل الإسلام كانوا يتقيدون بأنواع من

القيود في المآكل والمشارب، امتثالًا لأوامر أئمتهم الدينيين، واتباعًا لأوهام آبائهم الأولين، فلما أسلموا قال الله تعالى: إن كنتم تعبدونني فعليكم أن تحطموا جميع تلك القيود وتأكلوا ما أحللته لكم هنيئًا مريئًا، ومعناه أنكم إن لم تكونوا عبادًا لأحباركم وأئمتكم، بل لله تعالى وحده، وإن كنتم قد هجرتم طاعتهم إلى طاعته، فقد وجب عليكم أن تتبعوا ما وضعه لكم من الحدود، لا ما وضعوه هم في الحلال والحرام . ومن ذلك جاءت كلمة العبادة في هذا الموضع أيضًا بمعاني العبودية والإطاعة ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة:٦٠] ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر:١٧] ، والمراد بعبادة الطاغوت في كل من هذه الآيات الثلاث هو العبودية للطاغوت وإطاعته، ومعنى الطاغوت في إصطلاح القرآن كل دولة أو سلطة ، وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمها في أرضه، وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء، أو بالتعليم الفاسد . فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك الإمامة والزعامة وتعبده لها ثم طاعته إياها ، كل ذلك بلاشك عبادة للطاغوت!

- **العبادة بمعنى الطاعة** : خذ بعد ذلك الآيات التي قد وردت فيها كلمة العبادة بمعناها الثاني فحسب؛ قال الله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس:٦٠] ، الظاهر أنه لا يتأله أحد للشيطان في هذه الدنيا، بل كل يلعنه ويطرده من نفسه، لذلك فإن الجريمة التي يصم بها الله تعالى بنى آدم يوم القيامة ليست تألههم للشيطان في الحياة الدنيا، بل إطاعتهم لأمره ، واتباعهم لحكمه ، وتسرعهم إلى السبل التي أراهم إياها. ، وقوله: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ

كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الصافات:٢٢-٣١] ، ويتضح بإنعام النظر في هذه المحاورة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون، أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأصنام التي كان يتأله لها القوم، بل المراد أولئك الأئمة والهداة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح، و تمثلوا للناس في لبوس القديسين المطهرين، فخدعوهم بسبحاتهم وجباتهم وجعلوهم تبعًا لهم، فالتقليد الأعمى لأولئك الخداعين ، والاتباع لأحكامهم هو الذي قد عبر الله عنه بكلمة العبادة في هذه الآية ، وقال ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١].

والمراد باتخاذ العلماء والأحبار أربابًا من دون الله ثم عبادتهم في هذه الآية هو الإيمان بكونهم مالكي الأمر والنهي، والإطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول ، وقد صرح بهذا المعنى رسول الله ﷺ نفسه في الأحاديث الصحيحة، فلما قيل له : « إننا لم نعبد علماءنا وأحبارنا، قال :ألم تحلوا ما أحلوه وتحرموا ما حرموه؟ قال : بلى ، قال : فتلك عبادتكم إياهم .

العبادة بمعنى التأله :

أما العبادة بمعنى التأله فيقول الأمير عنها : لننظر بعد ذلك في الآيات التي قد وردت فيها كلمة العبادة بمعناها الثالث ، وهو « التأله » ، وليكن منك على ذكر في هذا المقام أن العبادة بمعنى التأله تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن **أولهما** : أن يؤدي المرء لأحد من الشعائر كالسجود والركوع والقيام والطواف وتقبيل عتبة الباب والنذر والنسك، ما يؤديه عادة بقصد التأله والتنسك، ولا عبرة بأن يكون المرء يعتقده إلهًا أعلى مستقلا بذاته، أو يأتي بكل

ذلك معتبرا إياه وسيلة للشفاعة والزلفى إليه ، أو مؤمنًا بكونه شريكًا للإله الأعلى ، وتابعًا له في تدبير أمر هذا العالم.

والثاني : أن يظن المرء أحدًا مسيطرًا على نظام الأسباب في هذا العالم ، ثم يدعوه في حاجته ، ويستغيث به في ضره وآفته، ويعوذ به عند نزول الأهوال ونقص الأنفس والأموال .

فهذان الوجهان كلاهما داخل في معاني التأله، والشاهد بذلك ما يأتي من آيات القرآن : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر:٦٦] ، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ [مريم :٤٨].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف:٥] ، ففي كل من هذه الآيات الثلاث قد صرح القرآن نفسه بأن المراد بالعبادة فيها هو الدعاء والاستغاثة ، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] ، والمراد بعبادة الجن والإيمان بهم في هذه الآية، تفصله الآية الآتية من سورة الجن﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:٦] ، فيتبين منه أن المراد بعبادة الجن هو العياذ بهم ، واللجوء إليهم في الأهوال ونقص الأموال والأنفس، كما أن المراد بالإيمان بهم هو الاعتقاد بقدرتهم على الإعاذة والمحافظة. ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان:١٧، ١٨] ، ويتجلى من بيان هذه الآية أن المقصود بالمعبودين فيها هم الأولياء والأنبياء والصلحاء ، والمراد بعبادتهم هو الاعتقاد بكونهم أجل وأرفع من خصائص العبدية، والظن بكونهم متصفين بصفات الإلوهية ، وقادرين على

الإعانة الغيبية وكشف الضر، والإغاثة، ثم القيام بين يديهم بشعائر التكريم والتعظيم فيما يكاد يكون تألهًا وقنوتًا﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ [سبأ:٤٠]، والمقصود بعبادة الملائكة في هذه الآية هو التأله والخضوع لهياكلهم وتماثيلهم الخيالية، كما كان يفعله أهل الجاهلية، وكان غرضهم من وراء ذلك أن يرضوهم، فيستعطفوهم ويستعينوا بهم في شؤون حياتهم الدنيا .، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، والمراد بالعبادة في هذه الآية أيضًا هو التأله، وقد فصل فيها أيضًا الغرض الذي كانوا لأجله يعبدونهم وهو التزلف بهم إلى الله تعالى.

يتضح كل الوضوح من جميع ما تقدم من الأمثلة أن كلمة العبادة في القرآن قد استعملت في بعض المواضع بمعنيي العبودية والإطاعة، وفي الأخرى بمعنى الإطاعة فحسب، وفي الثالثة بمعنى التأله وحده والآن قبل أن نسوق لك الأمثلة التي قد جاءت فيها كلمة العبادة (شاملة لجميع المعاني الثلاثة)، لا بد أن تكون على ذكر من بعض الأمور الأولية.

أ) إن الأمثلة التي قد سردناها آنفًا، تتضمن جميعًا ذكر عبادة غير الله، أما الآيات التي قد وردت فيها كلمة العبادة (بمعني العبودية والإطاعة) فإن المراد بالمعبود فيها إما الشيطان، وإما الأناس المتمردون الذين جعلوا أنفسهم طواغيت ، فحملوا عباد الله على عبادتهم وإطاعتهم بدلا من عبادة الله وإطاعته ، أو هم الأئمة والزعماء الذين قادوا الناس إلى ما اخترعوه من سبل الحياة وطرق المعاش جاعلين كتاب الله وراء ظهورهم .

.ب) وأما الآيات ا لتي قد وردت فيها العبادة (بمعنى التأله)، فإن المعبود

فيها عبارة إما عن الأولياء والأنبياء والصلحاء الذين اتخذهم الناس آلهة لهم على رغم أنف هدايتهم وتعليمهم، وإما عن الملائكة والجن الذين اتخذوهم لسوء فهمهم شركاء في الربوبية المهيمنة على قانون الطبيعة، أو هو عبارة عن تماثيل القوى الخيالية وهياكلها التي أصبحت وجهة عبادتهم ، وقبلة صلواتهم بمجرد إغراء الشيطان ، والقرآن الكريم يعد جميع أولئك المعبودين باطلاً ، ويجعل عبادتهم خطأ عظيمًا سواءًا تعبدهم الناس أو أطاعوهم ، أم تألهوا لهم، ويقول إن جميع من طفقتم تعبدونهم عباد ا لله وعبيده، فلا يستحقون أن يعبدوا ، ولا أنتم مكتسبون من عبادتهم غير الخيبة والمذلة والخزي، وأن مالكهم في الحقيقة ومالك جميع ما في السماوات والأرض هو الله الواحد، وبيده كل الأمر وجميع السلطات والصلاحيات ، ولأجل ذلك لا يجدر بالعبادة إلا هو وحده ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٤] ، ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ﴾ [الأنبياء :٢٦-٢٨].

ج) كذلك بعد أن يقيم القرآن البرهان على كون جميع من عبدهم الناس بوجه من الوجوه عبيدًا لله وعاجزين أمامه، يدعو جميع الإنس والجن إلى أن يعبدوا الله تعالى وحده بكل معنى من معاني العبادة المختلفة، فلا تكن العبدية إلا له، ولا يطاع إلا هو، ولا يتأله المرء إلا له، ولا تكن حبة خردل من أي تلك الأنواع للعبادة لوجه غير الله ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ ﴾ [الزمر:١٧] ، ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ ﴾ [يس] .

لقد أمر الله تعالى في هذه الآيات أن تختص له العبادة التي هي عبارة عن العبدية والعبودية والإطاعة والإذعان، وقرينة ذلك واضحة في الآيات، فإن الله تعالى يأمر فيها أن اجتنبوا إطاعة الطاغوت والشيطان والأحبار والرهبان والآباء والأجداد واتركوا عبديتهم جميعًا، وادخلوا في طاعة الله الواحد الأحد وعبديته ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر:٦٦]، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾[فاطر:١٣] ، ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[المائدة:٧٦] ، وقد أمر الله تعالى في هذه الآيات أن تختص له العبادة بمعنى التأله .وقرينة ذلك أيضًا واضحة في الآية، وهو أن كلمة العبادة قد استعملت فيها بمعنى الدعاء وقد جاء فيما سبق وما لحق من الآيات ذكر الآلهة الذين كانوا يشركونهم بالله تعالى في الربوبية المهيمنة على ما فوق الطبيعة.

فالآن ليس من الصعب في شيء على ذي عينين أن يتفطن إلى أنه حيثما ذكرت في القرآن عبادة الله تعالى ولم تكن في الآيات السابقة أو اللاحقة مناسبة تحصر كلمة العبادة في معنى بعينه من المعاني المختلفة للكلمة، فإن المراد بها في جميع هذه الأمكنة معانيها الثلاثة « العبودية والإطاعة والتأله» .

فلا داعي لأن تخص كلمة العبادة في هذه ا لآيات وما شاكلها بمعنى التأله وحده، أو بمعنى العبدية والإطاعة فحسب، بل الحق أن القرآن في مثل هذه الآيات يعرض دعوته بأكملها ، ومن الظاهر أنه ليست دعوة القرآن إلا أن تكون العبدية والإطاعة والتأله، كل أولئك خالصًا لوجه الله تعالى ، ومن ثم إن حصر معاني كلمة (العبادة) في معني بعينه، في الحقيقة، حصر لدعوة القرآن في معان

ضيقة ومن نتائجه المحتومة أن يكون اتباعه لهذه المعانى اتباعا ناقصا فلابد من تناول مصطلح العبادة بهذا الشمول وتلك المعا نى كلها ، ليستقيم لنا فهم القرآن الكريم ومقاصد الشرع الحكيم .، ولعلنا بذلك نكون وقفنا على المعنى الجامع للعبادة « العبودية ، والإطاعة ، والتأله » .

أنهى الأمير حديثه وجلس ينتظر الشيخ ، وكله ثقة بأنه لابد أن يقول شيئا ، نعم هو لايعرف مايدور بذهن الشيخ وما يجول بخاطره ، لكن قد بدت على الشيخ علامات ، ترى ماذا يعتمل بداخله ؟، وفيما يقلب الشيخ أفكاره ؟، إنى لأراه يتأهب للحديث ، نظر الشيخ إلى الأمير ، ليرى وجهه متهللا ، رآه منتفخا كالطاوس كأنما فاز بغريمه ، ثم قال له :-

أليس قد ورد فى الحديث «أن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين» ؟ فمالى أراك وقد تكررت لدغاتك ، وتشابهت أخطاؤك ؟، فى كل مرة تنزع نفس المنزع ، وتقع فى نفس الشرك الذى نصبته لنفسك ، أو نصب لك حتى صرت فيه أسيرا ، رغم أنك تصول بفكرك وتحلق بكلامك ، وتشيح بوجهك تارة ، وتشير بيدك أخرى ، ولاتقدر أن تتخلص من الفخ والشرك الذى وقعت فيه لكن لايأس عندى أيها الأمير ولاملالة ، وزادى قوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا﴾ ، فاسمع منى نفعنى ونفعك الله تعالى .

أولا : إنها نفس الأخطاء تكررها ، لقد سويت بين الأصل والفرع ، بل جعلت الفرع أصلا، ونقلت الأصل إلى موقع الفرع ، ثم أخذت تفسر وتشرح وترتب القواعد بناءا على تصورك الجديد ، إن التعريف اللغوى لكلمة «العبادة» لا خلاف بشأنه ، العبادة والعبودية والعبدية : أى الخضوع والتذلل ، هذا هو معناها الأول والأصلى والأساس فى اللغة ، والخضوع والتذلل فى الإنسان انما يكون بخضوع القلب وانكساره وشعوره بالحاجة والافتقار إلى الله ، وهذه المعانى تتحقق أول ماتتحقق على مستوى الفرد ، فهى حالة فردية فى الأساس ، وحالة قلبية فى المقام

الأول . أما الطاعة والإتباع ، فهى تابع من توابعها ، ومظهر من مظاهرها ، ومقتضى من مقتضياتها ، ولازم من لوازمها ، فالعبد الذى يصدق فيه وصف العبودية أو العبدية لابد أن يطيع ويتبع تعاليم سيده وأوامره ، وينفذ تكاليفه ، لاشك فى ذلك لكنه يقوم بهذه الأعمال بعد أن يتصف بالعبودية وينزل منزلتها ، فالطاعة والاتباع هما برهانان على صدق العبودية ، وليسا هما العبودية ، وهما وسيلة للتعبير عن تحقيق العبودية ، وليسا هما الغاية منها . فالعبودية والعبادة غاية، والطاعة والاتباع هما الوسيلة لتحقيق هذه الغاية ومظهر من مظاهرها . ولذلك إن سلمت معك بالمعنى اللغوى فلا أسلم لك بشرحك وتفسيرك للعبادة بقوك نقلا عن المودودى أيضا وهو يفسر العبادة « أى استسلام المرء وانقياده لأحد غيره ، انقيادا لا مقاومة معه ولاعدول عنه ، ولاعصيان فيه حتى يتبعه فيستخدمه حسب مايرضى وكيف يشاء ، » ، هكذا قلت أيها الأمير، والصحيح كما سمعت أنك قد خلطت بين العبادة وبين مقتضياتها وآثارها أثناء تفسيرك للمعنى اللغوى للعبادة فجعلت العبادة هى « عدم المقاومة ، وعدم العصيان ، والاتباع » بالرغم أن هذه الثلاث إنما هى توابع من توابعها ومقتضى من مقتضياتها ، وليست هى معناها الأصلى ..

- ولئن كان المعنى اللغوى للعبادة هو مطلق الخضوع والذل ، فهى ليست بهذا الاطلاق فى الشرع ، وإنما هى خضوع وذل بصورة معينة، « خضوع تام مقترن بمنتهى الحب لله تعالى» ، فالعبادة كما يعرفها العلماء فى الشريعة ، «هى كمال الحب لله مع كمال الذل له سبحانه وتعالى» ، تجمع بين الحب والتعظيم، بين الافتقار إليه ، والإجلال له ، والرغبة فيه ، والركون إليه ، وكلا من الحب والذل معان قلبية كما تعرف وإنما ينعكس أثرها بعد ذلك على الجوارح والأعمال الظاهرة للإنسان ، وفى هذا يقول ابن كثيرعن العبادة : (في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف).اهـ[التفسير ١/ ٢٥].

ويقول الدكتور محمد أحمد عبد القادر : « والعبادة المأمور بها، يؤديها المسلم وهو ذليل خاضع لمولاه، مع حبه له، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية الحب له، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى، فمن خضع لإنسان وهو يبغضه لم يكن عابدًا له، ومن أحب إنسانًا ولم يخضع له، لا يسمى عابدًا له، فحب الرجل لولده وأهله لا يسمى عبادة لأنه حب طبيعي، وفي حق الله تعالى لا يكفي أحدهما منفردًا عن الآخر، فالخضوع الذي ليس فوقه خضوع والحب الذي ليس فوقه حب، هو حق لله وحده ولا يستحقه غيره» ، أما ابن تيمية فيطلقها على عموم مايتقرب به إلى الله ممايحبه ويرضاه ، فيقول « العبادة اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة .....» ، ثم بدأ يعدد مظاهرها وصورها ومناسكها . ولايفوتنك أن التقرب لابد أن يلازمه الإقبال والحب والرغبة ، فخضوع القلب وذله ، وافتقاره وشوقه إلى الله هو المعنى الأصلى للعبادة ، أما مناسكها ومفرداتها فهى المظاهر اللازمة لتحققها فى الخارج ، والتى تستلزم طاعة العبد لسيده ، واتباعه أوامره ، وفعل مايحبه واجتناب مايكرهه ويبغضه ، ولقد فصل الإمام ابن تيمية فى رسالته العبودية فى ذلك ، وكذا تلميذه ابن القيم فى تفسيره ، وفى مدارج السالكين ، ولبيان أن العبادة أصلها المعنى القلبى أسوق فى ذلك مثلا يوضح الصورة وهو قول الرسول ﷺ « الدعاء هو العبادة » ، هل معنى ذلك أن الدعاء فقط هو العبادة ؟ ، أو أن العبادة هى الدعاء فقط ؟ ، بالتأكيد ليس المقصود هذا ولاذاك، فالكل يعلم يقينا أن للعبادة صورا وفروعا كثيرة ، وفى الحديث الصحيح «إن شرائع الإسلام قد كثرت ....» ، فليس الدعاء وحده هو العبادة ، كما أنها ليست هى الدعاء فقط ، لكن جعل الرسول ص الدعاء هو العبادة ، لأنه يشتمل على معناها الحقيقى الأصلى ، وكذلك معناها الفرعى والاقتضائى ، فالعبد عندما يستشعر حاجته إلى ربه، ويحس بافتقاره إليه ، ويراه رحيما ودودا عطوفا بخلقه ، ويتولد فى داخله التعظيم له ، والشوق إليه وحبه ، فيتجلى الله فى قلب هذا الشخص

بصفات الجلال وصفات الجمال ، وهذه هى حقيقة العبادة وروحها ، هنا وساعتها يتوجه المرء بقلبه، ويمد يديه ، يسأله سبحانه ويدعوه بعدما قامت معانى العبودية فى قلبه، وملكت عليه نفسه ، أما أن يمد يديه وقلبه لا يشعر بالفقر والانكسار والإجلال والحب لله سبحانه والشوق إليه ، فان الله لايقبل من قلب ساه لاه كما هو معلوم ، ولعلنا بذلك نكون قد وضحنا الفارق بين المعنى الأصلى وبين المعنى الاقتضائى للعبادة الذى قد وقع الخلط بينهما فيما نقلته من كلام المودودى، يقول وحيد الدين مبينا حقيقة العبادة فى رده على كلام المودودى : «وهى تأله العبد إلى الله ، فيدعوه ويتوجه إليه متضرعا وخاشعا ، ويركن ويحنف إليه بشكل كامل ، فهذة هى روح العبادة وحقيقتها ، ولكن لكل حقيقة جوانب تنشأ حسب اعتبارات مختلفة عند الإنسان ، وحسب علاقاته وأحواله ، وحقيقة العبادة أيضا لها مظاهر خارجية ، وبهذا الاعتبار يندرج فى فهرس العبادة سائر نظام الطاعة ، إذ من مقتضيات العبادة اللازمة أن يطيع المؤمن الله تعالى فى كل شؤونه ومعاملاته ، وعلاقة العبودية تظهر فى صورة الطاعة ، وليست العبادة عبادة حقيقية إذا وجد معها طغيان وعناد ...» ، هكذا يفرق بين العبادة وبين الطاعة ، فالثانية هى مقتضى الأولى وصورة من صورها . لعلك تسأل أيها الأمير وماذا تفيدنا هذه التفرقة مادامت العبادة لابد أن تترجم إلى طاعة ؟ ولقد سبقت الإجابة على هذا التساؤل من قبل ، أن التفرقة بين المعنيين هو تفرقة بين الوسيلة والغاية ، فالغاية مطلوبة فى كل الأوقات وكل الأحوال ، لاتسقط عن المرء تحت أى ظرف ، بينما الوسيلة تكون مطلوبة وواجبة بحسب الظروف والوسع والطاقة ، وقد تسقط عن المرء حينا إما لعدم توفر شروطها ،أو لوجود موانع دونها، فالعبادة غاية لاتسقط بحال ، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ ، بينما الطاعة بحسب الطاقة ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ ، وفى الحديث « إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم » ، العبادة غاية لا تسقط أبدا عن المرء ، بينما الزكاة مثلا وسيلة

ومظهرمن مظاهر العبادة ، هذه الزكاة ليست مفروضة ولا مطلوبة من الكافة ، لكنها مفروضة على طائفة بعينها ، وقد تسقط عنهم بسبب عدم توفر الشروط كشرط بلوغ النصاب مثلا ، أو عدم مرور الحول عليها ، كما تسقط عن المرء الذى يملك النصاب ، وانقضى على هذا النصاب حول كامل ، قد تسقط عنه الزكاة لوجود مانع كدين يجب على الإنسان أداؤه ، فبرغم فرضيتها وتوافر شروطها سقطت عنه لوجود مانع من الأداء بحق هذا الشخص بعينه، وهو بعدم أدائه لها ليس مقصرا فى العبادة ، لأنها فى الأصل غير ثابتة فى حقه .

ثانيا : أنك فى كلامك قد عكست الترتيب ، فبدلا أن تقدم الخضوع وذل القلب وافتقاره وحبه لله وتجعله هو الأصل ، وهذا هو المعنى الحقيقى الأصلى للعبادة ، نراك قدمت الطاعة والاتباع والإذعان ، قبل خضوع القلب وذله وحبه لله تعالى وإحساسه بالافتقار والإجلال له ، حيث نقلت عن المودودى قوله : «ويتضح من هذا الشرح اللغوي لمادة (ع ب د) أن مفهومها الأساسي أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقيا دًا . وهذه هي حقيقة العبدية والعبودية،» . ..... إلى قوله « وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتمًا يتبعه تصور الإطاعة » ..... ثم يقول المودودى في وضوح : « ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ، ويعترف بعلو شأنه وكان قلبه مفعمًا بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه ويتفنن في إبداء الشكر على الآئه وفي أداء شعائر العبدية له، وكل ذلك اسمه التأله والتنسك . وهذا التصور لا ينضم إلى معاني العبدية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب، بل يخضع معه قلبه أيضا.... » وهنا ملاحظات ثلاث إحداها : قوله عن الإذعان وترك المقاومة وعدم العصيان « وهذه حقيقة العبدية والعبودية » بالرغم

أن هذا هو المعنى التبعى، وليس المعنى الحقيقى كما سبق بيانه .

الثانية : قوله « وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هى إطاعة سيده ... » ، هذه ليست الوظيفة الحقيقية ، إنما هى وظيفة تبعية للعبودية، وهى وسيلة من وسائل تحقيقها، والوظيفة الحقيقية هى العبادة بمعنى خضوع القلب وافتقاره وتعظيمه وحيه لسيده ، وإخلاصه له وحده ، وهذه كلها محلها القلب كما سبق ذكره ، وبها ورد النص ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وهى حق الله كما ورد فى حديث معاذ « أتدرى ماحق الله على العباد ، وماحق العباد على الله ؟ ، ثم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ...» البخارى ، ولم يقل « أن يطيعوه » .

الثالثة : قوله « ثم إذا كان العبد لم يقف به الأ مر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه ، وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر ....» ، انظر كيف عبر بكلمة ثم التى تفيد التراخى ، ليجعل الطاعة والتذلل مقدما على الإقرار بعلائه سبحانه ، وإفعام قلبه بشكره ، والاعتراف بعلو شأنه » ، رغم أن العرفان بالعلاء ، والإقرار بالعلو، والقلب المفعم بالشكر، كل هذه هى الأساس فى العبادة والأصل لها، وهى سابقة على الطاعة ، وليست الطاعة التى جعلتها أنت والمودودى مقدمة على المعانى القلبية كما ترى فى كلامه .

قد ترى فى كلام المودودى ذكر العبادة بمعناها الأصلى الذى هو يملأ القلب ، وبمعناها الاقتضائى التبعى الذى هو الطاعة والاتباع ، نعم هذا صحيح ، لكن الترتيب قد اختلف ، فهو هنا قدم الطاعة على الخضوع والذل القلبى والإكبار للخالق والافتقار إليه وملء القلب بحبه ، فقد جعل الطاعة أولا ، وجعل هذه كلها ثانيا ، برغم كونها هى الأصل .

إن هذا التغيير وهذا التقديم والتأخير إنما حدث نتيجة خطأ فى تصور طبيعة

الرسالة الإسلامية والدين الإسلامى ، فبدلا من جعله الدين علاقة قلبية داخلية نفسية فى الأساس بين العبد وربه ، ثم يترتب عليها مظاهر وأعمال وشرائع ، كان التصور للدين عنده على عكس ذلك ، إذ جعله أمرا وطاعة ، نظاما وانضباطا ، كما سنرى عند حديثنا عن مفهوم الدين عند المودودى أيها الأمير .

لقد انقلب الأمر بسبب هذا الترتيب المغلوط ، فأصبحت العلاقة بين العبد وربه علاقة ظاهرية فى الأساس، وبالتالى انكمش الجانب الروحى لهذه العلاقة رغم أنه هو المطلوب الأول، وهذه المظاهر وغيرها إنما هى وسائل لتحقيقه وتزكيته ، وهى المطلوب الثانى ، كما أنها ثمرة من ثمار تحقيقه ، فمن عبد الله أطاعه ، لكننا نرى كأن الله تعالى شأنه فى هذا التعريف الجديد الذى تراه أنت ويراه المودودى يسوق خلقه إليه سوقا بالسياط والإذلال والتخويف ، على الرغم أنه فى الحقيقة رحمته سبقت وغلبت غضبه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ، ونرى المودودى يقول بوضوح لالبس فيه : « العبادة من العبد، ومعنى العبد الخادم ، فمعناها الطاعة والامتثال الكامل » ، انظر إنه لم يقل هى الحب والذل لله، ولاهى الرغبة والرهبة ، وإنما جعلها الطاعة والامتثال الكامل . أى هى عنده الأمر والتنفيذ فقط ، دون الالتفات إلى الروح والقلب الذى هو الأساس .

ثالثا : قد ذكرت أن العبادة فى اللغة تطلق على معان خمسة فقلت : « ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والإطاعة والتأله والخدمة والقيد والمنع» ، ونقلت المعانى الخمس عن لسان العرب ، ولست أدرى لماذا اقتصرت على هذه الخمس برغم وجود عشر معان للكلمة فى لسان العرب ، لماذا لم تلحق بها غيرها ؟

- ثم إنك ذكرت استعمال القرآن المعانى الثلاثة الأوائل كمعانى أساسية لكلمة العبادة ، وقد وردت فى القرآن – بحسب كلامك – مجتمعة أو منفردة، ثم ذهبت تدلل على كلامك بالعديد من الآيات فقلت : « وإذا رجعنا إلى القرآن بعد

هذا التحقيق اللغوي رأينا أن كلمة العبادة قد وردت فيه غالبًا في المعاني الثلاثة الأولى ، ففي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان الأول والثاني معًا، وفي الأخرى المعنى الثاني وحده، وفي ا لثالثة المعنى الثالث فحسب، كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد.....» .

- أولا : القرآن لم يستخدمها جميعا كمعان أساسية كما تصورت أيها الأمير ، إنما استخدمها بمعان مختلفة منها ما هو أساس ومنها ما هو اقتضائى كما سبق بيانه ودليلنا على ذلك أن الآيات التى ذكرتها لا تثبت ما ذهبت إليه وخذ لذلك مثلا العبادة بمعنى الطاعة ذكرت قوله تعالى فى سورة الصافات ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ .....إلى قوله ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ .....» الآيات . ثم عقبت قائلا : « ويتضح بإنعام النظر في هذه المحاورة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون، أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأصنام التي كان يتأله لها القوم، بل المراد أولئك الأئمة والهداة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح، و تمثلوا للناس في لبوس القديسين المطهرين، فخدعوهم بسبحاتهم وجباتهم وجعلوا تبعًا لهم، والذين أشاعوا فيهم الشر والفساد باسم النصح والإصلاح . فالتقليد الأعمى لأولئك الخداعين والإتباع لأحكامهم هو الذي قد عبر الله عنه بكلمة العبادة في هذه الآية) ..

وحقيقة اللبس فى المسألة أنك اعتبرت هذا الحوار قد دار بين المشركين وبين شركائهم ، أى بين العابدين ومعبوديهم ، وجعلت المعبودين هم الأئمة الطاغين والشيوخ المضلين ، وأنهما اشتركا سويا فى العذاب ، واعتبرت أنهم أشركوا لما أطاعوهم ، وهذا التصور غير صحيح لأن الآية ذكرت ثلاث طوائف ، الأولى : هم الذين ظلموا ، والثانية : أزواجهم ، والطائفة الثالثة : ما كانوا يعبدون من دون

الله ، وبالنظر فى السورة التى وردت بها الآيات نجد أن أئمة الضلالة ورؤساء الكفر الذين عبر عنهم القرآن بالظالمين والمستكبرين والملأ قد ردوا دعوة النبى قائلين: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ ، فقد اعترفوا أنهم عابدون وليسوا معبودين، وإنما دار هذا الحوار بين أصناف من الظالمين المشركين ، أو بينهم وبين أزواجهم ، وليس بين العابدين وآلهتهم ، فليس ثمة مجال لقصر تفسير العبادة هنا بالطاعة للائمة والعلماء المضلين ، قال الطبرى : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾. يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - : قَالَتِ الْإِنْسُ لِلْجِنِّ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْجِنُّ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا مِنْ قِبَلِ الدِّينِ وَالْحَقِّ فَتَخْدَعُونَنَا بِأَقْوَى الْوُجُوهِ ، وَالْيَمِينُ : الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

يَعْنِي : بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ . عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ ﴿ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : عَنِ الْحَقِّ ، الْكُفَّارُ تَقُولُهُ لِلشَّيَاطِينِ . عَنْ قَتَادَةَ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : قَالَتِ الْإِنْسَ لِلْجِنِّ : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الْخَيْرِ ، فَتَنْهَوْنَنَا عَنْهُ ، وَتُبَطِّئُونَنَا عَنْهُ .عَنِ السُّدِّيِّ ، فِي قَوْلِهِ ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : تَأْتُونَنَا مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ تُزَيِّنُونَ لَنَا الْبَاطِلَ ، وَتَصُدُّونَنَا عَنِ الْحَقِّ . قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : قَالَ بَنُو آدَمَ لِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالَ : تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَيْرِ ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الإِسلام وَالْإِيمَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . وَقَوْلُهُ ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ: قَالَتِ الْجِنُّ لِلْإِنْسِ مُجِيبَةً لَهُمْ بَلْ لَمْ تَكُونُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ مُقِرِّينَ ، وَكُنْتُمْ لِلْأَصْنَامِ عَابِدِينَ ،﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ يَقُولُ : قَالُوا : وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ حُجَّةٍ،

فَنَصُدَكُمْ بِهَا عَنِ الْإِيمَانِ ، وَنَحُولَ بَيْنَكُمْ مِنْ أَجْلِهَا وَبَيْنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ يَقُولُ : قَالُوا لَهُمْ : بَلْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ قَوْمًا طَاغِينَ عَلَى اللَّهِ، مُتَعَدِّينَ إلى مَا لَيْسَ لَكُمُ التَّعَدِّي إِلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَخِلَافِ أَمْرِهِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ . عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قَالَتْ لَهُمُ الْجِنُّ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿قَوْمًا طَاغِينَ﴾... عَنِ السُّدِّيِّ ، فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ قَالَ : الْحُجَّةُ وَفِي قَوْلِهِ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ قَالَ : كُفَّارٌ ضُلَّالٌ ، فهذا الإمام الطبرى يفسر الحوار انه دار بين الإنس والجن ، أو بين الإنس والشيطان ، وينقل ذلك عن العلماء السابقين .

وقال : ابن كثير :يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر : ٤٧ ، ٤٨]. وقال﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ : ٣١ – ٣٣]. قالوا لهم هاهنا : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ،قال الضحاك ، عن ابن عباس : يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء . وقال مجاهد :يعني : عن الحق ، الكفار تقوله للشياطين .

وقال قتادة : قالت الإنس للجن : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ،قال : من قبل

الخير ، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه .

وقال السدي تأتوننا [عن اليمين] من قبل الحق ، تزينون لنا الباطل ، وتصدونا عن الحق وقال الحسن في قوله : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ (إي والله ، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه .

وقال ابن زيد :معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به .

وقال يزيد الرشك :من قبل « لا إله إلا الله » . وقال خصيف : يعنون من قبل ميامنهم . وقال عكرمة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ، قال : من حيث نأمنكم .

وقوله : ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن ، والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان ، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾ أي : من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴾ أي : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به ، فخالفتموهم . فهاهو ابن كثير يعتبر الحوار قد دار بين الكفار بعضهم مع بعض ، ولم يذكر المشركين والشركاء . ولا الشيوخ المضلين .

وقال ابن عاشور : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ عطف على « مستسلمون » أي استسلموا وعاد بعضهم على بعض باللائمة ، والمتسائلون : المتقاولون وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبينه حكاية تحاورهم من قوله ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾ وقوله « فأغويناكم » إلخ .

وعبر عن إقبالهم بصيغة الماضي وهو مما سيقع في القيامة ، تنبيها على تحقيق وقوعه ؛ لأن لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم ، وتحذير دهمائهم من الاعتزاز بتغريرهم ، مع أن قرينة الاستقبال ظاهرة من السياق من قوله ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ الآية .

والإقبال : المجيء من جهة قبل الشيء ، أي من جهة وجهه وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المتختل الخائف . واستعير هنا للقصد بالكلام والاهتمام به كأنه جاءه من مكان آخر .

فحاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجه به الذين اتبعوا على قادتهم وزعمائهم، ودلالة التركيب عليه أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم لأن الإتيان يتضمن القصد دون إرادة مجيء ، كقول النابغة : أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة وقد تقدم استعماله واستعمال مرادفه وهو المجيء معا في قوله ﴿قَالُوا بَل جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية في سورة الحجر .

أو أن يكون اليمين مرادا به جهة الخير لأن العرب تضيف الخير إلى جهة اليمين .وقد اشتقت من اليمن وهو البركة ، وهي مؤذنة بالفوز بالمطلوب عندهم وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش من التيمن بالسانح ، وهو الوارد من جهة يمين السائر ، والتشاؤم ، أي ترقب ورود الشر من جهة الشمال .

وكان حق فعل « تأتوننا » أن يعدى إلى جهة اليمين بحرف (من) ، فلما عدي بحرف (عن) الذي هو للمجازاة تعين تضمين « تأتوننا » معنى « تصدوننا» ليلائم معنى المجاوزة ، أي تأتوننا صادينا عن اليمين ، أي عن الخير . فهذا وجه تفسير الآية الذي اعتمده ابن عطية والزمخشري وقد اضطرب كثير في تفسيرها . قال ابن عطية ما خلاصته : اضطرب المتأولون في معنى قولهم « عن اليمين » فعبر عنه ابن زيد وغيره بطريق الجنة ، ونحو هذا من العبارات التي هي تفسير بالمعنى ولا

تختص بنفس اللفظة ، وبعضهم أيضا نحا في تفسيره إلى ما يخص اللفظة فتحصل من ذلك معان منها : أن يريد باليمين القوة والشدة قلت : وهو عن ابن عباس والفراء فكأنهم قالوا : إنكم كنتم تغروننا بقوة منكم ، ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا : تأتوننا من الجهة التي يحسنها تمويهكم وإغواؤكم وتظهرون فيها أنها جهة الرشد ، وهو عن الزجاج والجبائي ، ومما تحتمله الآية أن يريدوا : إنكم كنتم تأتوننا ، أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمن ، فعبروا عنها باليمين ، ومن المعاني أن يريدوا : أنكم تجيئون من جهة الشهوات وعدم النظر لأن جهة يمين الإنسان فيها كبده ، وجهة شماله فيها قلبه ، وأن نظر الإنسان في قلبه ، وقيل : تحلفون لنا . أ.هـ .

وجواب الزعماء بقولهم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدوهم عن طريق الخير ، أي بل هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال : بل لم تؤمنوا ، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم ، أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان . ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ أي من قهر وغلبة حتى نكرهكم على رفض الإيمان ، ولذلك أكدوا هذا المعنى بقولهم : ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ ، أي كان الطغيان ، وهو التكبر عن قبول دعوة رجل منكم ، شأنكم وسجيتكم ، فلذلك أقحموا لفظ « قوما » بين « كان » وخبرها لأن استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأن الطغيان من مقومات قوميتهم ، كما قدمنا عند قوله تعالى ﴿لَّـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في سورة البقرة .

وفرعوا على كلامهم اعترافهم بأنهم جميعا استحقوا العذاب ، فقولهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ ، تفريع الاعتراض ، أي كان أمر ربنا بإذاقتنا عذاب جهنم حقا . وفعل (حق) بمعنى ثبت .

وفى روح المعانى : ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل

عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة، والانقياد لازم لذلك عرفا؛ فلذا استعمل فيه، أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضا للهلاك ويخذله، وجوز في الإضراب أن يكون عن مضمون ما قبله أي لا ينازعون في الوقوف وغيره بل ينقادون أو يخذلون، أو عن قوله سبحانه ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي لا يقدر بعضهم على نصر بعض بل هم منقادون للعذاب أو مخذولون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء المضلون أو الكفرة من الإنس وقرناؤهم من الجن، وروي هذا عن مجاهد وقتادة وابن زيد يتساءلون يسأل بعضهم بعضا سؤال تقريع بطريق الخصومة والجدال . ، هكذا يوضح ابن عاشور ان الحوار قد وقع بين الاتباع والكبراء المتبوعين . لم يذكر الشيوخ والائمة المضلين .

يقول وحيد الدين : « وسر الخطأ في تفسيره العبادة بمعنى الطاعة المدنية يكمن في حوار جرى بين فريقى العابدين الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله ، والمؤلف ظن أنه حوار بين العابدين والمعبودين وذلك لأنه ترجم هذه الآية ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كالتالى ، فترد عليهم معبوداتهم ....» ، وقد رأينا أنه حوار بين الإنس والجن ، أو بين بنى ادم والشيطان ، ، أو هم الأتباع والرؤساء كرأى من الآراء وليس هو الرأى الوحيد المذكور في الآية ، لكن المودودى الذى نقلت عنه أيها الأمير أبرزه وأهمل ماسواه ليؤكد على مذهبه في تفسير العبادة بالطاعة ، ويلصقها بطاعة الزعماء وتقليد العلماء ، ليخلص إلى أن الطاعة السياسية للأمراء المضلين بمجردها إنما هى عبادة لهم ، وقد رددنا على ذلك موضحين أن مجرد الطاعة لاتعد عبادة مالم تقترن بالحب والتعظيم ، أو إعطاء المطاع صفات الله التى لا تكون إلا له سبحانه ، كحق التحليل والتحريم ، أو السيادة المطلقة التى ليس فوقها سيادة ، وذلك عندما نعرض لتفسير آية التوبة وقصة عدى بن حاتم عن عبادة الأحبار والرهبان ، بل إن المودودى نفسه في بعض المواضع يوضح أن العبادة إنما هى الطاعة في الظاهر والباطن فيقول : « والمراد باتخاذ العلماء

والأحبار أربابًا من دون الله ثم عبادتهم في هذه الآية هو الإيمان بكونهم مالكي الأمر والنهي، والإطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول ، وقد صرح بهذا المعنى رسول الله ﷺ نفسه في الأحاديث الصحيحة، فلما قيل له : «إننا لم نعبد علماءنا وأحبارنا، قال :ألم تحلوا ما أحلوه وتحرموا ما حرموه؟ قال : بلى ، قال : فتلك عبادتكم إياهم .انظر لقوله : هو الإيمان بكونهم مالكى الأمر والنهى ، والإطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول » يتبين لك المعنى ، ويأتى مزيد بيان لها بعد ذلك بإذن الله ، وأؤكد أن الطاعة ليست هى العبادة بمعناها الاصلى إنما هى مقتضى وأثر ولازم من لوازمها ، وهذا ليس متواجدا كما ترى في آية الصافات .

أما المعنى الثانى للعبادة الذى تحاول اثباته من خلال القرآن وهو « العبودية والإطاعة » وتستدل له بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ ، فإن الناظر في هذه الآية يتأكد له أنها تدل على مذهبنا وليس على مذهبك أيها الأمير ، إنها تقول للمؤمنين وتناديهم بوصف الإيمان ، وهذا معناه أنهم لايعبدون غير الله ، وإلا كيف تناديهم بالإيمان وهم لايعبدونه وحده ؟ ثم هى تقول لهم : إن كنتم تعبدون الله وحده فكلوا الحلال الطيب واشكروه عليه ، ومعنى ذلك أن العبادة تقتضى طاعته في تناول الحلال وترك الحرام ، وهذا مانقوله من أن الطاعة مقتضى للعبادة وليست هى العبادة بمجرد إطلاقها ، أى أن الطاعة ليست هى العبادة بمعناها الأصلى، وإنما هى عبادة بمقتضى المعنى ولازمه ، والآية كما ترى لم تتعرض للآلهة والشركاء في شىء ، وإنما تخاطب المؤمنين بمقتضى إيمانهم وعبادتهم فكيف يستدل بها على أن الطاعة والعبودية هما العبادة ؟

- بينما المعنى الجامع للعبادة : الذى تستدل له بمجموعة من الآيات وتقصد بها « العبدية والإطاعة والتأله » ، مستشهدا بقوله تعالى في سورة يونس

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ الآيات فليس فيها طاعة، وإنما هى عبادة الأصنام والأوثان ،قال الإمام الطبرى : « القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل ، يا محمد ، لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليك : إن كنتم في شك ، أيها الناس ، من ديني الذي أدعوكم إليه ، فلم تعلموا أنه حقّ من عند الله: فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئًا ، فتشكُّوا في صحته. وهذا تعريض ولحنٌ من الكلام لطيف ... وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئًا ولا تضر ولا تنفع. فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، لأني أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إن شاء ، وينفعهم ويضرُّهم إن شاء . وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة. وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذي لبٍّ وعقلٍ صحيح.

- وقوله : ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾، يقول: ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدّقين بما جاءني من عنده.»

- **وفى تفسير الجلالين** : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أي أهل مكة «إن كنتم في شك من ديني» أنه حق «فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله» أي غيره ، وهو الأصنام لشككم فيه «ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم» يقبض أرواحكم «وأمرت أن» أي بأن «أكون من المؤمنين»

• **وفى التفسير الميسر** : « قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليه، وهو الإسلام ومن ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه، فإني لا أعبد في حال من الأحوال أحدًا من الذين تعبدونهم مما اتخذتم من الأصنام والأوثان، ولكن أعبد الله وحده الذي يميتكم ويقبض أرواحكم، وأُمِرْت أن أكون من المصدِّقين به العاملين بشرعه ».

• **وعند ابن كثير** : « يقول تعالى لرسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : قل : يا أيها الناس ، إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم من الدين الحنيف ، الذي أوحاه الله إلي ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقا ، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين. » ، فالآيات كما ترى تتحدث عن عبودية الأصنام والأوثان واعتقادهم أنها تنفع وتضر ولذلك أمر نبيه بقوله « ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك .....» ، فأين هذا من طاعة الحكام والأمراء والطاعة السياسية والمدنية ؟ ، بينما الآية تنهى عن دعاء غير الله ،والدعاء صورة الافتقار إلى الله والانكسار والذل له ، والرغبة فيه والحب له والشوق اليه ، وهذا هو معنى العبادة التى هى جماع الحب مع جماع الذل ، وليست مطلق الخضوع والطاعة كما سبق بيانه ..

• ثم ختمت استدلالك على ما ذهبت إليه بقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ، لتقول بعد ذلك : «إن القرآن يعلن عن دعوته الكاملة ، أى أن تنفذ الأحكام الإلهية في كل مكان ، من التأله إلى الحياة السياسية والمدنية » ، وهذا التفسير غير صحيح ، وإن كان حكم الله يجب إنفاذه في كل شىء لله فيه حكم ، لكن الآية لاتعطيك هذا المعنى ، فالآية تتكلم عن الجانب النفسى والقلبى والروحى للعابد حال عبادته لربه ، فلا تتوجه

نفسه لغير الله ، قال القرطبى : « قال الماوردى: وقال جميع أهل التأويل في معنى قوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أى لا يرائى بعمله أحدا » ، فهى إذن تعالج الجانب النفسى أى تأله القلب لله ، وهذا هو المعنى الحقيقى للعبادة ، أما تنفيذ الأحكام وإطاعة الأوامر فهى معنى تبعى اقتضائى واجب على كل أحد بحسبه ، وبقدر وسعه وطاقته ، بينما توجه القلب إلى الله لايسقط عن صاحبه بحال من الأحوال . ولايعنى هذا إنكارنا لوجوب الحكم بالإسلام ، وضرورة التحاكم إلى شريعته سبحانه ، ولايعنى أيضا أننا نقول بنفى وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ، معاذ الله أن يمر بخاطرنا ذلك ، إنما فقط نقول : إن إنفاذ الأوامر، وترك النواهى ، والرجوع إلى الكتاب والسنة ، كل ذلك مقتضى من مقتضيات العبادة لأنه مظهر الطاعة لله وللرسول ، وهو ثمرة من ثمرات العبادة له سبحانه وتعالى ، واليك طائفة من أقوال فقهاء الإسلام في تعريف العبادة ليتضح لك المعنى الصحيح ، ويتجلى لك الفارق بين المعنى الأصلى والمعنى الاقتضائى كما سبق بيانه :

- - قال ابن عطية : (نعبد : نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال له معبد).اهـ[المحرر الوجيز ١/ ١١٥].

- فجعل الإمام ابن عطية حقيقة التعبد في طاعة الأوامر مصحوبة بتذلل واستكانة ، .....معناه نعاملك بذل واستكانة ، ونتقرب إليك بإقامة شرعك ، دل على أن مفهوم العبادة عنده رحمه الله هي الخضوع والتعظيم المطلق طلبا للزلفى والقربى ، فأما التعظيم والخضوع المطلق من كلامه فيعبر عنه قوله : (تذلل واستكانة) ، وأما طلبا للقربى من كلامه فيدل عليها قوله (نقيم الشرع والأوامر)

- -قال الشنقيطي : (التقرب إلى الله بامتثال ماشرع وأمر به ، واجتناب مانهى عنه على وجه الخضوع والذل والمحبة) .اه [معارج الصعود ٤١].

- فذكر رحمه الله ثلاثة قيود :

• **الأول** : التقرب وهو معنى مشروط صحيح ليصدق على العمل عبادة ، إذ هو ركن ركين في المعاملة الواجبة للإله – نعني طلب القربى منه -

• **الثاني** : امتثال ماشرع واجتناب ما نهى ، وهذا يتضمن الصورة التامة الكاملة للمعاملة الواجبة للإله

• **الثالث** : على وجه الخضوع والمحبة ، وهو شرط لابد منه لأن الفعل المجرد عنه لا يعد عبادة أصلا -

• - قال ابن العربي : (العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره) عارضة الأحوذي ١١/ ٧١ وهنا تجد ابن العربي رحمه الله نص على أمر طلب القربى في قوله : (يقصد به خدمته في أمره) والتقرب يكون مع الحب والاخلاص.

• - قال المروزي : (ومعقول في اللغة وعند العلماء أن عبادة الله هي التقرب إليه بطاعته والاجتهاد في ذلك ....فلما قال تبارك وتعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) كانت الطاعات كلها التي يتقرب بها إلى الله داخلة في عبادته).اه تعظيم قدر الصلاة ١/ ٣٤٥-٣٤٩

• وتعريف هذا الإمام من أجل التعريفات المذكورة في العبادة فهو جامع مانع واضح ، ذكر رحمه الله أن ركن العبادة الأول هو طلب القربى من المعبود ، ثم يكون ذلك بالخضوع له والذل المطلقين حيث عبر عن ذلك بقوله (بطاعته والاجتهاد في ذلك)، ثم قرر رحمه الله أن الوجه التام الأكمل للمعاملة الواجبة للإله هي ما أمرنا الله به وتعبدنا به ، ثم دلل رحمه الله على ذلك بقوله جل وعلا : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)، فالأوامر الشرعية إنما هي تجسيد للمعاملة الواجبة (العبادة) مع الإله (الله) ، ولايفوتنك أن كلمة التقرب تحمل معانى الرغبة والحب والشوق ، فإذا صاحبها التعظيم والإجلال ضمت إلى ذلك

الرهبة والخوف ، فينتج عن كل ذلك استكانة القلب وتوجهه إلى خالقه ، وتستجيب الجوارح بالطاعة الظاهرة ، المسبوقة والمصحوبة بهذه العانى القلبية على أعلى درجاتها ، وأسمى حالاتها ، فيكون عبدا باطنا وعابدا مطيعا في ظاهره.

- وقال ابن كثير عن العبادة : (في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف).اهـ[التفسير ١/ ٢٥].

- بهذه النقول وغيرها يتبين لنا أن الطاعة ليست هى العبادة ، وإنما هى صورة ظاهرة لها ، لابد أن يسبقها ويصاحبها حب القلب وافتقاره وذله وانكساره وتعظيمه وشوقه إلى خالقه ، مع الإخلاص له وحده ، فهذه كلها هى روح العبادة وحقيقتها ، أما الخضوع والطاعة الظاهرة فما هما إلا أثر من آثارها ومظهر من مظاهرها ومقتضى من مقتضياتها .

- لعلك بذلك أيها تكون قد أدركت موضع الخطأ ومكمن الخطر في تفسيرك لمصطلح العبادة ، وقولك بأن الطاعة هى جوهرها وأساسها ومعناها الأصلى والحقيقى ، .وأختم معك هذا المبحث بقول الدكتور محمد أحمد عبد القادر « والعبادة المأمور بها، يؤديها المسلم وهو ذليل خاضع لمولاه، مع حبه له، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية الحب له، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى، فمن خضع لإنسان وهو يبغضه لم يكن عابدًا له، ومن أحب إنسانًا ولم يخضع له، لا يسمى عابدًا له، فحب الرجل لولده وأهله لا يسمى عبادة لأنه حب طبيعي، وفي حق الله تعالى لا يكفي أحدهما منفردًا عن الآخر، فالخضوع الذي ليس فوقه خضوع والحب الذي ليس فوقه حب، هو حق لله وحده ولا يستحقه غيره؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ،..... وأما

أنواع العبادة فهي تشمل الإنسان كله، حتى لم يبق فيه جزء لم يشترك في العبادة، وعليه تتنوع العبادة إلى خمسة أنواع:

١- **العبادات القلبية**: وهي الأساس لما بعدها؛ لأنه يترتب على الإخلال بها الدخول في الشرك الأكبر أو الأصغر، وسميت قلبية؛ لأنها من عمل القلب وحده، وأعظمها: أن يعتقد الإنسان بانفراد الله تعالى بالربوبية والإلوهية والأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن له الكمال المطلق من غير تشبيه أو تمثيل أو تكييف أو تعطيل، ويعتقد بجميع ما أنزل الله على رسوله مما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا يسع المسلمَ جهلُه. ومنها الحب، والخوف، والإخلاص، والتوكل، والصبر، والرجاء، وغيرها، والمقصود: أن لا نشرك فيها أحدًا مع الله، أما الحب الطبيعي كحب الولد، أو الخوف الطبيعي كخوف الحيوان المفترس، فلا يدخل في النهي.

٢- **العبادات القولية**: وتسمى اللفظية لأنها تنطق باللسان، وأعلاها: كلمة التوحيد، فمن اعتقد بكل ما سبق ولم ينطق بكلمة التوحيد من غير عذر كالأبكم، لم يحقن دمه ولا ماله، ومنها الذكر والدعاء والتسمية وكذلك الاستعاذة والاستغاثة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العلوم.

٣- **العبادات البدنية**: وهي التي يؤديها الجسم، كالصلاة والصوم وأفعال الحج والجهاد بالنفس، والرحلة في طلب العلم أو لكسب القوت الحلال.

٤- **العبادات المالية**: وهي التي تعتمد على المال وحده، كالزكاة والصدقات والنذور والذبائح والهدي.

٥- **العبادات البدنية المالية كالحج**. قلت : وكل ماذكره من أنواع العبادات الغير قلبية لابد فيها من حضور القلب ومواطئته للعمل او القول ، وإلا فلا يعتتبر أى منها عبادة مهما بالغ فيها صاحبها ، وذلك لافتقارها إلى المعنى الأول

والأساسى للعبادة الذى هو روحها وجوهرها فتنبه .

• ويقول « والعبودية الخاصة: هي الفرق ما بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فلما كان الخلق جميعًا عبيدًا للربوبية، انفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة، فهم عبيد ألوهيته تعالى؛ لأنهم خضعوا طوعًا واختيارًا وحبًّا، وتسمى هذه العبودية عبودية الطاعة والمحبة أو العبودية الإرادية أو عبودية الإلوهية، لأن المؤمنين أفردوا الله بالإلوهية، وقد وردت هذه العبودية الخاصة بالقرآن حيث نسب أصحابها إليه تعالى فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، وقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ ، وقال: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ، وهم الذين خرجوا من سلطان إبليس وإنما سلطانه على من تولاه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.

ج- الفرق بين العبودية العامة والخاصة:

١- العبودية العامة تشمل الخلق كلهم، والخاصة لا يدخل فيها إلا المؤمنون، فيشترك المؤمنون مع الكافرين بالعبودية العامة وينفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة.

٢- العبودية العامة قهرية قسرية لا خروج للكائنات عنها، وأما العبودية الخالصة فهي إرادية اختيارية.

٣- أن الحساب والجزاء يوم القيامة على العبودية الخاصة؛ لأنها هي المطلوبة من العباد، ولذلك كانت العبودية العامة لا تدخل في الإيمان ولا في الجنة ولا تخلص صاحبها من النار ما لم يدخل في العبودية الخاصة.

٤- العبودية العامة لا تأتي في القرآن إلا مقيدة، وتأتي العبودية الخاصة مطلقة ، فإذا أضيف العباد إلى الله في القرآن مطلقًا عني بهم عبيد إلهيته، وأما إضافة عبيد

الربوبية فتأتي مقيدة، كما بين ذلك ابن القيم بقوله: «فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء».

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا أحد خمسة أوجه:

١ - إما منكرًا كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾.

٢ - معرفًا باللام كقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٣- مقيدًا بالإشارة أو نحوها كقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

٤ - أن يُذكروا في عموم عباده فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر كقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾.

٥ - أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة لأن معنى اللفظة الذل والخضوع.. لكن أولياءه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا .

د- دعوة الرسل جميعًا إلى عبادة الله:

كانت وظيفة الرسل جميعًا هي الدعوة إلى الله وإفراده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وقد وردت هذه الوظيفة على لسان كل رسول إلى قومه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ، وقال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ، وقد قرر القرآن هذه الحقيقة بصيغتين مختلفتين ومدلولهما واحد، فقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ، وقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾. إن

مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد غيره، ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله. فالقرآن الكريم دعا لعبادة الله ونهى عن عبادة غيره؛ لأن النفس البشرية بحاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة، فلم يكتفِ القرآن بالنهي الضمني المفهوم من الأمر الصريح على ما هو مقرر في علم الأصول من أن الأمر بالشيء نهى عن ضده الذي لا يجتمع معه، بل أتى بالنهي الصريح عن عبادة غير الله؛ لأن كثيرًا من الناس يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فيقعون في الشرك ويحسبون أنهم مسلمون.

وقد وصف الله بالعبودية أخص أوليائه ورسله وأنبيائه فقال في وصف الملائكة: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ، وقال عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ ، وقال عن عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ، فجعل صفته العظمى أنه عبد لا كما يدعي أعداؤه النصارى من وصفه بالإلهية، وقد وصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته في عدة مواضع من كتابه، فقال في مقام إنزال الكتاب: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، وقال في مقام الدعوة إلى الله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ ، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ ، وآيات كثيرة تبين أن الله وصف رسله في أشرف مقاماتهم بالعبودية وخاصة صفوتهم محمد ﷺ، فقد أمره ربه بالعبادة حتى يأتيه الأجل، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ؛ وذلك لأن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد عبودية لله كلما ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن الخروج عن العبودية أكمل وأنه سقط عنه التكليف الشرعي أو عن غيره كالخضر أو الرسول، فهو جاهل ضال كافر، وذلك لأن الغاية الوحيدة التي خلق الله من أجلها الخلق وأحبها ورضيها

لهم هي العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، ومن لم يكن عابدًا لله فلا شك أنه واقع في عبودية غيره، لأنه لا بد أن يكون للقلب مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله محبوبه ومعبوده، كان غير الله له محبوبًا مرادًا، إما الصنم أو الشمس والقمر الكواكب، أو الملائكة والأنبياء والصالحين أو المال والجاه والسلطان، أو المبادئ والشعارات واللافتات اللا إسلامية، لما لها عليه من سلطان وقهر، ولما يعطيها من الخضوع والطاعة، فعن أبي هريرة ط عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطى رضي وإن لم يُعط لم يرض» ، فمن لم يكن عبدًا لله كان عبدًا لهواه ولما يهواه، لأن الرق والعبودية الحقيقية هو رق القلب وعبوديته، وبذلك يتبين العنى الصحيح الأصلى للعبادة ، وأنها لاتعنى مجرد الطاعة ، انما هى طاعة معينة ، يوافق القلب فيها الجوارح والعمل الظاهر ، ذلا وحبا ، تعظيما ورغبة ، شوقا ورهبة ، فكل عبادة طاعة ، وليست كل طاعة عبادة ، ويأتى مزيد بيان عند كلامنا عن التشريع والطاعة بإذن الله ..